# أحاديث في الفناء الفاطمي - المجلس الأول

الخميس: 9/2/2017 ــ 11 جمادي الأول 1438

✤ الحديث في هذا المجلس هو جوابٌ عن سؤال ورد في عدّة رسائل في برنامج [سؤالك على شاشة القمر] وقد تركتُ الإجابة عليه لِمجالس اللّيالي الفاطمية

السؤال: عن هذا المعنى والمضمون الذي جاء في زيارات الصدّيقة الكبرى "صلوات الله عليها":

(يا مُمتحنة، امتحنكِ اللهُ الذي خلقكِ قبل أن يخلُقكِ فوجدكِ لِما امتحنكِ صابرة..)

السؤال الذي ورد هو عن مضمون وفحوى هذهِ الكلمات المُقتطفة مِن زياراتها الشريفة "صلوات الله عليها".

✤ قبل الإجابة عن السؤال أبيّن هذه المُقدّمة، وهي:

أنّ كلمات المعصومين "صلوات الله عليهم" تحدّثتْ عن أمرٍ في غاية الأهميّة، يُمكن أن أُجملَه فيما جاء في الحديث الشريف:

(حديثٌ تدريه خيرٌ مِن ألف حديث ترويه).

صحيح أنّه ورد في كلماتهم "صلوات الله عليهم" أنّهم يقيسون منازل علماء شِيعتهم بقدر ما يُحسنون مِن روايتهم عنهم، وقطعاً أهم جُزء في إحسان هذه الروايات هو الموسوعيّة والحِفظ.. ولكن تبقى الدراية هي الأهم كما يقول إمامنا الصادق "صلوات الله عليه": (اعرفوا منازل شيعتنا عندنا بقدر ما يُحسنون مِن روايتهم عنّا وفهمهم مِنّا).

✤ إذا أردنا أن نفهم هذه الكلمات مِن زيارة الصدّيقة الكبرى (يا مُمتحنة، امتحنكِ اللهُ الذي خلقكِ قبل أن يخلُقكِ فوجدكِ لِما امتحنكِ صابرة..). لابُدّ أن أتناول أهمّ المفردات في هذا المقطع مِن الزيارة حتّى نستطيع أن نصِل إلى المعنى الإجمالي الذي اشتملتْ عليه هذه الكلمات.

✪ المُفردة (1) التي أقف عندها: (المُمتحنة)

ما المراد مِن المُمتحنة حين نُخاطب الزهراء عليها السلام في زيارتها الشريفة (يا مُمتحنة؟

■ المُمتحنة مأخوذة مِن الامتحان، والإمتحان يأتي على معنيين:

● يأتي بمعنى الاختبار

● ويأتي بمعنى الاصطفاء.

علماً أنّ الاختبار هو وسيلة أيضاً تُوصلنا إلى الاصطفاء.. فالأُستاذ في المدرسة أو الجامعة يستطيع أن يصطفي ويختار ويُميّز أفضل تلامذتهِ من خلال الاختبار.. (وقفة عند مثال لتقريب الفِكرة).

■ حين أقول: فاطمة مُمتحنة.. فليس المقصود أنّ فاطمة مرّت بدور مِن أدوار الاختبار.. وعليه فلابدّ أن يكون المراد مِن (الامتحان) هنا في زيارة الصدّيقة الكبرى هو (الاصطفاء) وليس (الاختبار).. فحين نُخاطبها "صلوات الله عليها": (يا مُمتحنة) يعني: يا مُصطفاة.. فالإمتحان - كما بيّنت - تارةً يكون اختباراً، وتارةً يكون اصطفاء.

● حتّى في عامّة المؤمنين الامتحان في بعض الأحيان يكون لهم تارةً اختبار، وتارةً اصطفاء.

■ هذه الأحاديث المعصوميّة التي تقول: (إنّ حديثنا صعبٌ مُستصعب ذكوان أجرد شريف لا يحتمله إلّا نبي مُرسل أو ملك مُقرّب أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان..) الأنبياء المُرسلون لهم أكثر مِن اصطفاء، وكذلك الملائكة المُقرّبون لهم أكثر مِن اصطفاء.. وبالمثل المؤمنون أيضاً مُصطفون (أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان..) أي اختار قلبه للإيمان، أو اصطفى قلبه للإيمان.. لا يُوجد اصطفاء هنا كما جاء في سورة الحُجرات {إنّ الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أُولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرةٌ وأجر عظيم}. امتحن قلوبهم للتقوى: أي اختار قلوبهم واصطفاها للتقوى.. فالامتحان بمعنى الاصطفاء والاختيار واضح في هذه الآية وواضح في الأحاديث.

● علماً أنّ الاصطفاء إنّما يكون للذوات التي تحمل مِن المواصفات ومِن الكمالات ومِن الأوصاف ما يجعلها مُستغنية عن الاختبار.

■ هنا حين نُخاطب الصدّيقة الكبرى في زيارتها الشريفة (يا مُمتحنة) يعني: يا مُصطفاة
وهذا المضمون بيّنته الصدّيقة الطاهرة "صلوات الله عليها" في خُطبتها وهي تتحدّث عن أبيها خاتم الأنبياء "صلّى الله عليه وآله" فتقول: (وأشهدُ أنّ أبي مُحمّداً عبده ورسوله، اختارهُ وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاهُ قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغَيب مكنونة، وبستر الأهاويل مَصونة، وبنهاية العدم مقرونة). الكلام هو هو .. فنفس المضمون الذي جاء في العبارات المُقتطفة مِن زيارتها الشريفة هو نفس المضمون الوارد في خُطبة الزهراء في حديثها عن أبيها خاتم الأنبياء.

❂ المفردة الثانية التي أقف عندها: هي مُفردة (الخلق) في هذه العبارة مِن الزيارة: "الذي خلقكِ قبل أن يخلقكِ" الحديث عن الخلق حديث واسع جدّاً (وقفة عند مثال لتقريب الصورة بفكرة الأفلام السينمائية ومراحل الخَلْق التي تشتمل عليها في مراحل إعدادها المُختلفة إلى أن تُعرض على الشاشة)

■ إذا أردنا أن نعود إلى حقائق الخَلْق التي تحدّث عنها القرآن الكريم أو العترة الطاهرة، فنحنُ مررنا بمراحل كثيرة جدّاً حتّى وصلنا إلى هُنا.. فنحنُ في منطق الحُكماء نُمثّل (الصورة) والمادة الحقيقة لهذه الصورة موجودة في مكان آخر.. (يعني نحن بمثابة الصورة الموجودة على شاشة السينما.. وماكينةُ السينما التي تبث أشعّتها موجودة في مكان آخر) فهذا العالم الذي نعيش فيه هو بمثابة صورة، وهناك شيء وراء هذه الصورة.

✤ وقفة أُشير فيها بشكل مُوجز وسريع إلى مراتب خلقهم "صلوات الله عليهم".

■ أعلى مراتب ومنازل المخلوقات هو وجود المخلوقات في علم الله تعالى قبل تحقّقها.. وهذه أعلى مراتب الوجود (أن نكون موجودين في علم الله).. نحن موجودين في علم الله قبل وجودنا على الأرض.. وجودنا في علم الله أعلى رُتبة مِن وجودنا على الأرض. ■ الحديث هنا في هذا المجلس هو عن فاطمة، فالعبائر المُقتطفة هي مِن زيارتها الشريفة "صلوات الله عليها"
وجود فاطمة في علم الله تعالى هو أعلى مراتب وجودها، ووجودها في علم الله بما لها مِن المنزلة عند الله.
بعد ذلك جاءتْ مرتبة مِن مراتب خلقها حين تحدّثتْ الأحاديث فقالتْ: "إنّ الله خلق اسمه الأعظم" بكلّ التفاصيل الكثيرة التي أوردتها كلماتهم الشريفة، كما في دعاء ليلة المبعث ودعاء يوم المبعث وفي سائر أدعيتهم (وباسمكَ الأعظم الأعظم الأعظم، الأجلّ الأكرم الذي خلقته فاستقرّ في ظلّك، فلا يخرج منك إلى غيرك). تعبير الدعاء الشريف (الذي خلقته) هذا خلْقٌ قبل الخلق.

■ قول الزيارة: (يا مُمتحنة، امتحنكِ اللهُ الذي خلقكِ قبل أن يخلُقكِ..) نحنُ في هذه الزيارة نُخاطب فاطمة المُتجليّة في الأرض.. أمّا الحديث عن الإسم الأعظم فهو تجلٍّ لفاطمة التي كانت في علم الله.. وتلك هي أعلى المراتب

● صحيح أنّ الله تعالى قريبٌ في بُعده وبعيدٌ في قُربه، وداخلٌ في الأشياء لا كشيءٍ في شيء.. وكما جاء في أحاديثهم الشريفة "صلوات الله عليهم" كقول سيّد الأوصياء (ما رأيتُ شيئاً إلّا ورأيتُ الله قبله وبعده ومعه وفيه)
قطعاً تعبير (وفيه) لا بِمعنى المُلامسة (أي دخول الأشياء في الأشياء) ولا بمعنى المُمازجة كمُمازجة الأشياء للأشياء.

■ قول الدعاء: (الذي خلقته فاستقرّ في ظلّك، فلا يخرج منك إلى غيرك) يعني لا علاقة له بالمخلوقات الأخرى.. فهو مُستقرٌّ هناك، وهو نفس المضمون الوارد عنهم "صلوات الله عليهم" في حديثهم عن المشيئة (أوّل ما خلق الله خَلَق المشيئة بنفسها، ثُمّ خَلَق الأشياء بالمشيئة). المشيئة هي هذه التي خَلَقها الله فاستقرّ في ظلّه فلا تخرج منه إلى غيره.

■ ما جاء في خطابه تعالى للذات الأحمدية (يا أحمد قد خلقتُك لأجلي) الخطاب هنا للذات الإنسانية التي تجلّت في المعنى الكامل في الخطاب لأحمد.. وأحمد (الذات الأحمدية) هي اسمٌ وعنوانٌ لتلكَ المشيئة، لذلك الإسم الأعظم

الذي خلقه تعالى فاستقرّ في ظِلّه، فلا يخرج منه إلى غيره.. (هذه المعاني وغيرها من مراتب خلقهم، هي قبل الخلْق الذي نتحدّث عنه في عالم الشهادة وعالم الطبيعة).

■ مُصطلح الخَلْق الذي يتردّد في القرآن الكريم وفي الأدعية وفي الروايات في الأعم الأعم الأغلب يتحدّث عن عالم الشهادة.. عن هذا العالم الأرضي (عالم الطبيعة) الذي نحن فيه والذي يُمثّل الصورة .. أمّا الأصل الذي يمدّ هذا العالم بالوجود فهو في مكان آخر.

فرُتبة هذا العالم في درجات الخَلْق هي بمثابة الصورة في فيلم السينما.. أمّا الرُتب العالية مِن الخَلْق فهي وراء هذا العالم.

● فعبارة (امتحنكِ اللهُ الذي خلقكِ قبل أن يخلُقكِ..) أي اصطفاكِ واختاركِ في تِلكَ المراتب العالية للخَلق.. (علماً أنّ الحديث عن الخَلْق هو الحديث عن هذا الخَلْق الذي تتجلّى مراتبه وآفاقه في هذا العالم الذي نعيشه).

✪ المفردة الثالثة من مفردات الزيارة الشريفة التي سأقف عندها هي: (الصابرة)

سأُبيّن معنى (الصابرة) في قول الزيارة (فوجدكِ لِما امتحنكِ صابرة)

أيضاً الكلام هو هو الذي تقدّم في المُمتحنة.. فإنّ المُراد من هذا الصبر في تعبير (صابرة) ليس هو معنى الصبر الذي يرتبط بنا.. الصبر الذي يرتبط بنا هو حبسُ النفوس كما تُشير إلى ذلك الآية 200 من سورة آل عمرآن {يا أيُّها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلكم تفلحون}

● معنى (اصبروا) كما ورد في رواياتهم الشريفة "صلوات الله عليهم": أي اصبروا على الفرائض، اصبروا على دينكم.

● (وصابروا) المُصابرة أكثر من الصبر.. صابروا أعداءكم.

● (ورابطوا) المُرابطة أكثر مِن الصبر والمُصابرة.. رابطوا إمامكم.

● (واتّقوا الله لعلّكم تُفلحون) يعني لربّما تُفلحون .. فتعبير (لعلّ) كما يقول أهل العربية يُفيد الترجّي والتوقّع.

إذا كُنّا نبحث عن الصبر فينا فلا نجده.. فكيف بالمراتب الأخرى: (المُصابرة، والمُرابطة، والتقوى)؟!

■ هذه العناوين كلّها المذكورة في سورة آل عمرآن (الصبر والمُصابرة والمُرابطة، والتقوى..) كلّها تجتمع في سورة المؤمنون في قوله تعالى: {قد أفلح المؤمنون} ومعنى هذه الآية في كلمات أهل البيت "عليهم السلام" أي: قد أفلح المُسلّمون.

علماً أنّ (قد) إذا جاءت قبل الفعل الماضي فهي تُفيد تأكيد وقوع الفعل.. فهذه المُقدّمات (الصبر، والمُصابرة، والمُرابطة) تقود إلى التسليم. ولكن هذه المعاني هي بالنسبة إلينا، وليست بالنسبة إلى فاطمة.

● يعني أنّ قول الزيارة (فوجدكِ لِما امتحنكِ صابرة) صابرة هنا لا تقودني إلى معنى الصبر الذي يرتبط بي وبكم.. تعبير (صابرة) الوارد في الزيارة يقودنا إلى اسم (الصبور) من الأسماء التسعة والتسعين من أسماء الله الحُسنى.. كما جاء في أدعيتنا (اللّهمّ إنّي أسألكَ بإسمك يا صبور..). فالصابرة هنا تأخذنا إلى هذا الاتّجاه، وليس إلى الصبر الوارد في الآية 200 من سورة آل عمرآن.

✤ وقفة موجزة لبيان معنى (الصبور) الذي هو مِن أسماء الله تعالى.

مِن أسمائه تعالى (الحليم) ومِن أسمائه (الصبور).. ووصف (الحليم) في جهة من جهات معناه هو الذي لا يُعاقب العاصي.. والعاصي إذا نَظَر إلى اسم الحليم فإنّه يُحسن الظن في أنّ الله تعالى لن يُعاقبه، فهو بين يدي الحليم الذي لا يُعاقب.

● أمّا (الصبور) فهذا الوصف في جهة من جهات معناه ومضمونه هو الذي لا يُباشر العقوبة مع الذي يستحق العقوبة، ولكن لا ضمان فيُمكن أن يُعاقب.

● الصبور يُمكن أن أُقرّب معناه بالحكيم، فهو الذي يجعل لكلّ شيء قدْراً مَعلوماً وهو الذي يرسم الآجال والمقادير ولا يستعجل فيها لِحكمته.. كالمضمون الذي نقرؤه - على سبيل المثال - في دعاء الافتتاح: (فإنْ أبطأ عنّي عتبتُ بجهلي عليك، ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خيرٌ لي؛ لعلمكَ بعاقبة الأُمور، فلم أرَ مولىً كريماً أصبرَ على عبدٍ لئيم منك عليَّ يا رب). هنا الباري تعالى لا يستجيبُ للعبد لِمصلحتهِ، فهناك حكمة، هناك قوانين، هناك قواعد، هناك نظام.. والحديث هنا عن اسم (الصبور).. وكذلك تعبير (الصابرة) في زيارة الصدّيقة الكبرى إذا أردنا أن نُدقّق في معناه الحقيقي، فالصابرة تعني: القيّمة.

القيّمة هي التي تتولّى تسيير الأمر، كما هو الحال مثال الأم، ومثال الأب.. فالأم والأب لا يُمكن أن يُعطيا لصغارهما كلّ ما يُريدون.. هناك برنامج يرسمه الأب، ترسمه الأم في تنشئة ورعاية أبنائهما.

● ففاطمة "صلوات الله عليها": القيّمة، ومُصطلح (القيّمة) يعني هناك برنامج، هناك مُخطط.. وهو نفس المضمون الوارد في سورة القدر {تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم مِن كلّ أمر} يعني هناك برنامج مرسوم لكلّ أمر.. هناك خارطة كاملة، وهذه الخارطة لابدّ أن تجري بحسب موازينها، والموازيين تقتضي - بحسب تقدير الحكمة - ألّا يسبق شيءٌ على شيء آخر.. وهذا يقتضي الصبر في تنفيذ البرنامج، وهذا الصبر يكون لِحاجة المخلوق ولِحاجة النظام.. فالصابرة هنا هي (القيّمة).

✤ خلاصة موجزة لِما تقدّم:

معنى قوله (يا مُمتحنة) أي يا مُصطفاة، (امتحنكِ الله) أي اصطفاكِ الله، (قبل أن يخلقك) أي قبل أن تظهري في هذا العالم.. لأنّ عبارة (الخَلْق) التي تتردّد في آيات الكتاب الكريم وفي كلماتهم الشريفة وفي الأدعية وفي الزيارات تتحدّث عن هذا العالم الذي نعيش فيه. (فوجدكِ لِما امتحنكِ صابرة) أي وجدكِ للاصطفاء الذي اصطُفيتِ به صابرة.. وتعبير (صابرة) هو نفس معنى القيّمة كما أشرت.. وليس الصبر على ما جرى على الزهراء بين الباب والجدار، وزياراتها الشريفة هي التي تُؤكّد هذا المعنى: أنّ المُراد مِن تعبير (صابرة) هو معنى القيمومة.

■ حين تقول الزيارة الشريفة: (وزعمنا أنّا لكِ أولياء ومُصدّقون وصابرون لكلّ ما أتانا به أبوكِ وأتانا به وصيّه "صلّى الله عليهما وآلهما"، فإنّا نسألكِ إنْ كنّا صدّقناكِ إلّا ألحقتنا بتصديقنا لهما لنُبشّر أنفسنا بأنّا قد طهُرنا بولايتكِ). صابرون هنا بمعنى التسليم لكلّ ما أتى به محمّد وعليّ "صلوات الله عليهما وآلهما".. فالحديث ليس في أجواء المُصيبة التي جرت على الصدّيقة الطاهرة.. الحديث هنا في أجواء القيمومة على الدين، في أجواء القيمومة على الخَلْق.

● الزيارة هنا تتحدّث عن أصل الدين والعقيدة التي ترتبط بالطهارة، وكلّ هذه المعاني تعود إلى شؤون القيمومة على الدين.. فلا وجود لِذكر أعدائها هنا وما صنعوه بها.

✤ هناك قضيّة مهمّة جدّاً:

إذا أردنا أن نتدبّر في آيات الكتاب الكريم وفي كلماتهم الشريفة وفي زياراتهم وأدعيتهم، نجد أنّ هناك قضيّة يبتني عليها هذا الوجود وهي: أنّ هذا الوجود وهذا الكون يبتني على طبقات وعلى مراتب.. وفي كلّ مرتبة مِن هذه المراتب هناك ظهور لأسماء الله الحُسنى.. فكلّ رزق بكلّ أشكاله منبعهُ الرزّاق، والرزّاق هو اسمٌ مِن أسمائه وصفة مِن صفاتهِ تعالى.

وكلّ رحمة في هذا الوجود في كلّ الطبقات هي منبع (الرحيم) ومنبع (الرحمن).. وهكذا كلّ شيء حولنا يعود إلى أصله.

وهذا الذي أشرتُ له من أنّنا في هذا العالم الترابي نُمثّل صورة.. وهذه الصورة لها مادة ولها جهة حقيقية.

كلّ ما في هذا الوجود منابعه الأسماء الحُسنى، كما أشرت في مثال (ماكينة السينما والصورة المُتحرّكة على الشاشة).

فما مِن رحمة في هذا الوجود إلى وتعود إلى منبعها (الرحمن الرحيم) وما مِن رزق إلّا ويعود إلى منبعه (الرزّاق) وما مِن قُدرة إلّا وتعود إلى منبعها (القادر).. لذا نحن نُخاطبه تعالى في دعاء البهاء (اللهم إني أسألك من قدرتك بالقدرة التي استطلت بها على كل شيء وكل قدرتك مستطيلة ، اللهم إني أسألك بقدرتك كلها)
القدرة التي نملكها هي مِن اسم (القدير).. كلّ ما في الوجود يعود إلى منابعه، إلى الأسماء الحُسنى، وهم "صلوات الله عليهم" الأسماء الحُسنى كما يقول صادق العترة "عليه السلام": (نحنُ الأسماء الحسنى).

■ علماً أنّني هنا لا أنفي أنّ وصف (المُمتحنة) يرتبط بالذي جرى على الصدّيقة الطاهرة "عليها السلام" من ظُلامات.. ولكن هذا المعنى يكون في الحاشية.
كما قلت: فإنّ هذا الوجود على طبقات وعلى مراتب، وأدنى هذه المراتب هو هذا العالم الذي نعيش فيه.

● هذه المضامين يُمكن أن تجمعها الكلمة التي نُردّدها في زياراتهم الشريفة: (إنّي مؤمنٌ بظاهركم وباطنكم)
فهذا الظاهر له مراتب والباطن أيضاً له مراتب.. وكلّاً من الظاهر والباطن له مراتب كثيرة لا حصر لها، وفي كلّ مرتبة مِن هذه المراتب تتجلّى الأسماء الحُسنى بحسب تلك المرتبة. (في مراتب الظاهر تتجلّى الأسماء الحُسنى بما يُناسب الظاهر، وفي مراتب الباطن كذلك)

■ ختام الحديث مع لقطة مِن كُتب السِيَر والتأريخ تُحدّثنا عن مشهد من مشاهد ظلامة الصدّيقة الكبرى وما جرى عليها.